المنهج النقدي عند ابن رشيق المسيلي "القيرواني"

بوديسة بولنوار
جامعة : الحاج لخضر – باتنة

الملخّص:

يتناول هذا المقال نقد ابن رشيق مركّزا على ما أنتجه في مجال النقد النظري والتطبيقي، وذلك استقراء لما وصلنا من مؤلفاته وهي كتبه الثلاثة "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" و"أنموذج الزمان في شعراء القيروان" و"قراضة الذهب في نقد اشعار العرب"، والثابت أن ابن رشيق الذي لا يكاد يخلو مؤلف للقدماء والمحدثين من ذكره ومن الاقتباس من مؤلفاته قد خلّف تراثا نقديا متميزا في جوانبه المنهجية والمعرفية مما جعله الناقد الأشهر في المغرب العربي في فترته الأولى وسننتظر فترة طويلة حتى يظهر ناقد آخر يحمل مشعل التنظير النقدي في المغرب وهو حازم القرطاجني، ليكونا محطتين لا يمكن تجاوزهما لمن أراد الاطلاع على إنتاج الغرب البلاغي والنقدي ، كما أن العمدة يعتبر أحد المحطات الرئيسية في مسيرة البلاغة والنقد المغربي القديم، وقد تنوّع منهج التأليف عنده فهو يهتم بالتنظير

Résumé :

Cet article s'intéresse à la critique d'IBN RACHIQ notamment tous se qu'il a produit en matière de critique théorique et appliqué à partir des trois ouvrages qui nous sont parvenues : « Al 3Omda Fi Mahacine Al chi3r oua Adabihi oua naqdihi », « Anmouzaj Al Zaman Fi cho3araa Al Qaïraouan » et « Qiradhat Al Thahab Fi Naqed Ach3aar Al 3arab ». Il est incontestable qu'Ibn Rachiq - dont toutes les œuvres anciennes ou contemporaines considèrent comme « la référence » - nous a légué un patrimoine critique distingué dans les aspects méthodologique et cognitif, ce qui fait de lui le plus célèbre des critiques Magrébins et il aura fallu attendre longtemps avant l'avènement d'un autre théoricien critique prodigieux qui n'est autre que Hazim Al Qartajini . Ces deux critiques sont incontournables pour tous ceux qui veulent appréhender la production rhétorique et critique en occident. En outre, on peut considérer « Al 3omda » comme une des étapes principales dans le processus de la rhétorique et de la critique maghrébine ancienne ; la méthodologie de son élaboration varie entre la théorie critique et le coté

النقدي كما يهتم بالتطبيق، وابن رشيق يعتبر مثالا للناقد الذي لم تضع شخصيته العلمية رغم موسوعية اطلاعه وكثرة مروياته فهو يلخص مسيرة قرون عدة من الجهود النقدية والبلاغية ويقف بحيوية نظرته ومنهجه ممثّلا للنقد المغربي بكلّ سماته.

التنظير النقدي عند ابن رشيق :

يتميز إنتاج ابن رشيق النقدي بالحفاظ على جوهر العملية النقدية وهو النص، فقد اختار ناقدنا منهجه النقدي الرامي إلى مقاربة النص الشعري حتى في كتابه العمدة الذي جمع فيه أكثر النظريات النقدية السابقة، فهو "لم يسلك مسلك التنظير النقدي كما فعل عبد القاهر الجرجاني في البلاغة أو كما فعل من بعدهما حازم القرطاجني، وإنما اختار ابن رشيق النهج التطبيقي، المجسّد فيما ترجمته رؤاه النظرية التي عمدت إلى التعامل مع النصوص الشّعرية المختلفة، لتبين تفاضلها فتحصل الاستجادة لبعضها، بينما يُرفض ويُستهجن البعض الآخر"[1] ، هذا التوظيف التطبيقي للنظريات السابقة دفع ببعض النقاد إل اعتباره ناقلا أكثر منه ناقدا ذا شخصية نقدية واضحة، مع علمنا سلفا بأن المعرفة كالبناء الذي يتواصل عبر مراحل متتابعة فيضيف اللاحق للسابق أو يستدرك عليه أو يصححه أو يخطّئه أو يحاوره بأدوات ومعارف مستجدة، مع حضور منهجي ومعرفي للاحق. والشخصية العلمية لا تقوم على طرح الجديد فقط، بل كثيرا ما يكون طرح الأفكار نفسها بمنهجية جديدة وضمن رؤية تجديدية داعيا إلى الاحتفاء بها وتثمينها، وهذا البعث للأفكار والمعارف والمصطلحات أكثر ما يكون في العلوم التي قطعت مراحل التأسيس ووضع المصطلحات واستبانت معالمها وطرحت أهم نظرياتها، فلا يكون للّاحق مهما بلغ من سعة الاطلاع ودقة التنظير كبير حظّ في الإتيان بجديد في هذا العلم، وهذا الحكم على وجاهته لا يصدق على الكثير من المؤلفين في فروع علمية كثيرة ظن أصحابها أنهم بلغوا بها درجة الاكتمال فنهض آخرون بمهمة الإضافة والتعديل وحتى التصحيح لمسار علمي كان يبدو شديد التماسك والوجاهة، ولنا في التفكير اللغوي العربي والغربي وما تميز به من تصحيح ذاتي متواصل ما يغنينا عن طلب المزيد من الحجج.

من هذا النوع من التصحيح والإضافة والتعديل المنهجي ما نلاحظه في مجال البلاغة والنقد، لأن المتتبّع لمسيرة التأليف النقدي والبلاغي عند العرب يقف على بعض الملاحظات التي واكبت تاريخ النقد والبلاغة في كافة مراحلها وكان لها دور حاسم في تحديد وجهتها وموضوعها، ومن هذه الملاحظات:

-أن علوما كثيرة شاركت في التّأسيس للنظر المنهجي في النقد والبلاغة، فهو سليل علوم التفسير والنحو والعلوم العربية المتقدمة، كما أن محاولة تفسير الإعجاز القرآني عند النقاد الأوائل وقضية المجاز عند المعتزلة كان لهما دور كبير في تنشيط حركة التأليف في البلاغة .

- كان التأليف النقدي في البداية يتخذ شكل ملاحظات تطبيقية، تقوم في الغالب على استقراء النص وملاحظة انسجامه داخليا و خارجيا و مع التقاليد الأدبية ، وأحيانا مع التقاليد الاجتماعية أو حتى مع التقاليد السلطانية. ولذلك ألفينا الملاحظات النقدية المنجزة لا تتجه إلى بنية اللغة أو جانب المعنى أو إلى التقاليد الشعرية فحسب، بل كانت من التنوّع والتباين بحيث تستعصي على التصنيف والحصر.

-بداية التأليف النقدي والبلاغي ارتبطت أساسا بالنص القرآني، لأنّ العلوم التي توزّعته وأسّست له كانت تقوم على النص القرآني كمادة أو كشاهد، بل كان النص القرآني الباعث الرئيسي لكثير من هذه العلوم، وإن كانت الملاحظات النقدية والبلاغية موجودة منذ البدايات الأولى للشعر وما صاحبها من ملاحظات معللة أو غير معللة، ثم كان للحاجة إلى تقعيد اللغة الذي يخدم هدفا آخر هو الغاية التعليمية أثر كبير في نشاط التأليف البلاغي وتوجيهه الوجهة التعليمية.[2]

-شكّلت بعض مناهج التأليف النقدي اتجاهات رئيسية ضمّت الكثير من المؤلفات والنظريّات، كاتجاه الإعجاز القرآني الذي تطور فيما بعد إلى نظرية النّظم، والاتجاه التقعيدي المهتم بوضع المصطلحات والتعريف بها ورصد أمثلتها، واتجاه آخر اهتم بالجانب التنظيري العام الذي يحاول وضع فلسفة للبلاغة والنقد متأثرا ببعض النظريات القديمة التي وردت عن طريق الترجمة، ويمكن تصنيف هاته الاتجاهات ضمن إطارين عامين هما الممارسة التنظيرية والممارسة التطبيقية، ويمكن إدراج علم البلاغة في الجهاز النظري الذي حاول وضع القواعد والمصطلحات الأساسية للناقد كمفاتيح يحاور من خلالها النص الأدبي أو لمتعلم العربية كمرحلة ثانية من الممارسة اللغوية بعد مرحلة القواعد الأساسية وهي قواعد النحو وقواعد الصرف، وبعد أن نضجت واستوت هذه القواعد خلال الممارسة التطبيقية التي تقترب من النقد أكثر منها إلى البلاغة.

- عند استقرائنا لتاريخ البلاغة الطويل يمكن رصد ثلاث محطات أساسية بارزة : الأولى تهتم ببلاغة الإقناع ويمثلها في نظامنا البلاغي تراث الجاحظ ويمكن اعتبار مصطلح "البيان" شعارا لها ، أما المحطة الثانية فالمصطلح الملخص لاتجاهها هو"البديع" لأن اهتمامها كان منصبا على بلاغة التخييل، وأبرز روادها ابن المعتز الذي صنف كتابًا يحمل المصطلح ذاته، ثم المحطة

الأخيرة التي زاوجت بين بلاغة الإقناع وبلاغة التخييل في مشروع تنظيري موسع، والتي يمكن وصفها "بالبلاغة العامة" ويمثلها كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء[3].

كان مصطلح "البيان" يشمل كافة الوسائل التي يقع بها تجلية المعنى وإظهاره، فكان رديفا لمصطلح "بلاغة"، والدراسات البيانية لم تعرف هذا التقسيم الثلاثي "المعاني" و"البيان" و"البديع" التي تكوّن مجتمعة "علم البلاغة" إلا في مرحلة متأخرة بعد أن غلبت على البلاغيين المتأخرين نزعة التقسيم والتصنيف. ويمكن اعتبار كتاب مفتاح العلوم للسكاكي بداية لهذا التوجّه، وقد أشار ابن خلدون إلى شهرة هذا المصطلح "علم البيان" في مقدمته عند المشتغلين بعلوم اللسان، وعندهم يندرج تحت "البيان" علوم ثلاثة: "علم البلاغة" و"علم البيان" و"علم البديع""[4]

–نميز مؤثرين هامين في مسيرة البلاغة والنقد: الأول اتجاه عربي صرف، والثاني اتجاه يوناني أرسطي، ومعظم المؤلفات التي تلت الجاحظ يلاحظ أنها استمدت من هذين الرافدين على درجات ونسب مختلفة.

خصوصيات النقد عند ابن رشيق:

ابن رشيق الشّاعر والنّاقد بموسوعية اطّلاعه وكثرة مروياته من مقولات السابقين وجمعه لأكثر النظريات والأفكار السابقة في مجال النقد والبلاغة يعتبر ملتقى الروافد الثقافية العربية القديمة، وهذا الثراء في مسيرته العلمية بقدر ما كان مدعاة للإكبار والتثمين فقد حمل البعض على رؤية مخالفة وهي اعتباره ناقلا[5] أكثر منه ناقدا ذا شخصية علمية متميّزة، وقبل الحديث عن مظاهر التجديد في نقده تبدو بعض الملاحظات مفيدة للتعريف بشخصيته:

أ–فإيراده لنماذج شعرية للمغاربة في العمدة يعتبر من المواقف التي كان سباقا إليها، إذ الغالب على نقد المغاربة إيراد الشواهد المشرقية مما أعطى انطباعا بأن النقد المغربي في الغالب صدى للمشرقي رؤية ومنهجا وشاهدا. ففي العمدة أورد ابن رشيق لنفسه بعض المقطوعات الشعرية، وكذلك أورد لبعض الشعراء وخاصة للحسن بن أبي الرجال[6] الذي شرّفه بجعله سببا في تأليف هذا الكتاب، كما أنه لم يفوّت فرصة في العمدة إلا ومدحه وأثنى على شعره من ذلك قوله:" ولو لم آت بهذا الباب إلا بما بنيته عليه من ذكر أشعار السيد الرئيس أبي الحسن أيّده الله لكان ذلك فوق الرّضا والكفاية، فمن ذلك قوله:

بَاكِرِ الرَّاحَ وَدَعْ عَنكَ العَذَلْ واسْعَ في الصِّحةِ من قَبلِ العِلَلْ..." [7]

كما جاء ذكر بكر بن حماد التاهرتي، والقزّاز وابن النحوي ، وأورد للأمير تميم بن المعزّ في العمدة بعض الأبيات.

ب – من ميزات ابن رشيق التواضع والمشاركة الوجدانية، فعند حديثه عن شعره يقدم بإشارات تؤكد تواضعه، كقوله:" وقد قلت أنا وإن لم أدخل في جملة من تقدم، ولا بلغتُ خطته من قصيدة اعتذرت بها إلى مولانا خلد الله أيامه من طول غيبة غبتها عن الديوان:

إليكَ يُخاضُ البَحْرُ فعْماً كأنّه بأمواجِهِ جيشٌ إلى البَرِّ زاحفُ"[8]،

كما أن وصف التجربة الشخصية في نظم الشّعر، وإيراد النماذج لذلك وحتى الاشتراك في السّجالات الشّعرية يعطي القارئ (متعلم البلاغة أو متعلم النظم أو القارئ العام) مشاركة وجدانية تخلو منها أكثر كتب النقد والبلاغة القديمة.

جـ – ابن رشيق يعترف بالفضل لأصحابه، إذ صرّح عند تناوله لمصطلح البديع أن "البديع ضروب كثيرة، وأنواع مختلفة... على أن ابن المعتز وهو أول من جمع البديع وألف فيه كتابًا"[9] وهو في أكثر المواضع يرجع القول إلى أصحابه، وما يغفل ذكر أصحابه أكثره مشتهر لأصحابه كالجاحظ أو الحاتمي .

د – اتّسم النقد لدى ابن رشيق بالشمولية، إذ يعتبر ما وصلنا من كتبه عملا متكاملا، ففي العمدة انصب اهتمامه على التنظير النقدي وفي الأنموذج نتعرّف على المترجم والنّاقد والشّاعر مما يعتبر عملا تطبيقيا رائدا، أما في قراضة الذهب فكان تركيزه متجها إلى قضية السرقات الشّعرية التي شغلت عددا غير قليل من النقاد منذ القديم ، وهذه الفكرة أشار إليها إحسان عباس قائلا "ويمكن أن نعدّ عمل ابن رشيق في كتبه الثّلاثة متكاملاً فقد حاول في دراسته لشعراء القيروان في كتاب " الأنموذج " أن يطبّق بعض القواعد النقدية التي حشدها في كتاب العمدة ، وعرض في أحد الفصول الأخيرة من العمدة لقضية السرقة في الشعر مورداً فيها آراء العلماء وبعض أمثلتهم، حتى إذا تعرّض هو نفسه لتهمة السّرقة عمل رسالة "قراضة الذهب" ليدلّ على اطّلاعه ومقدرته في هذه الناحية، بما يضعه في مصاف من تعرضوا لهذا الموضوع من النقاد." [10]، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن معظم دارسي مؤلفات ابن رشيق يعتبرون تأليف العمدة سابق زمنيا لتأليف الأنموذج وهذا الرّأي ينفيه محقق الأنموذج، إذ يقول:" إن جميع هذه الأحكام التي أطلقها جماعة من الباحثين لا تستقيم مع الحقائق التاريخية ولا تستند إلى حجج ثابتة، وتتعارض مع ما انتهينا إليه عند حديثنا عن

العمدة من أنه ألّف بين سنتي 422 و 426 هـ بينما لا يتجاوز آخر الأخبار الواصلة إلينا من الأنموذج سنة 421 هـ، وبذلك يمكن لنا القول : إن الأنموذج أسبق تأليفا من العمدة أو هما كتبا في فترة واحدة" [11]، وعلى الرغم من عدم التأكّد من تواريخ التأليف إلا أن ما وصلنا من مؤلفاته يعتبر عملا متكاملا تنظيرا وتطبيقا.

هـ- كما أن ابن رشيق قد طرق الكثير من القضايا النقدية التي وردت في النقد السابق له كما طرح الكثير من الرؤى التي يبدو سباقا إلى مناقشتها أو أنه استحدث لها تفسيرا وشرحا يناسب رؤيته ومنهجه، ومن هاته القضايا والأفكار النقدية التي وردت في العمدة وتعبّر عن أصالة ناقدنا:

* أن ابن رشيق في العمدة إذا أعاد طرح فكرة فكثيرا ما يضيف إليها ما يجعلها أصيلة وذلك بما يضفيه عليها من جدة وشمولية ودقّة، من ذلك تشبيه القصيدة بالجسم البشري الذي يحوي روحا وهذا ما يجعلها تحتمل الغموض والأسرار والخفايا، ثم دعوة المتلقي إلى معايشة ومصاحبة النص لكشف تلك الأسرار، وهذه الفكرة تناولها الحاتمي، وقد زاد عليه ناقدنا شيئاً تفصيلياً جديداً بقوله:" فمرض اللفظ كالتّشويه في الجسم أما اختلال المعنى كله (وهو الروح) فإنه يُبقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه"[12]، ثم يمثّل للاهتمام باللفظ وحده بقعاقع ابن هانئ الأندلسي ويعلق عليها بقوله: " وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد "[13]، وقد رأى البعض أن القول السّابق يشير إلى اهتمام ابن رشيق الكبير بوحدة القصيدة، ثم يضيف:" وهذه نظرة لا نعتقد أن أحدا من النقّاد سبق ابن رشيق إليها"[14]، ففكرة التشبيه قديمة لكن التّركيز على الوحدة العضوية للقصيدة وارتباط مظهري الابداع الشّعري اللفظ والمعنى يوجّه الفكرة نحو المنهج الذي يحاول ابن رشيق التأكيد عليه وهو التناسب والتوفيق بين اللفظ والمعنى الذي نجده لدى أغلب نقاد المغرب، كما ساوى بين أهمية اللفظ وأهمية المعنى في العملية الإبداعية، لأنهما طرفا العملية الإبداعية ولا يمكن الفصل بينهما، ما يجعل الفكرة بتوجيهها الجديد أصيلة لناقدنا .

* كما خالف سابقيه بإعادة ترتيب العناصر المكونة للشّعر، وبإقراره بأن حدوده لا ترسم إلا بإضافة مصطلح القصد والنية لتمييزه، فكانت بذلك نظرته إلى الشعر نظرة متكاملة وشاملة.

* في قضية المفاضلة بين البحتري وأبي تمام درج النقاد على اعتبار البحتري من الشعراء المطبوعين الذين حافظوا على عمود الشعر، واعتبروا أبا تمام شاعرا متصنّعا يكثر من توظيف المعاني العقلية والمنطقية، غير أن ابن رشيق اعتبر الشاعرين من مذهب واحد هو مذهب الصنعة والبديع، والفرق بينهما يكمن فينسبة توظيف البديع، ذلك أن أبا تمام أكثر من البديع فعرف به، أما

البحتري فكان مقتصدا في توظيفه، وابن رشيق بهذا أعاد تصحيح نظرتنا إلى القضية وإلى عدم صحة الأحكام المطلقة، وأن الشاعر يمكنه أن يكون مطبوعا ومتصنعا في الوقت ذاته[15] .

* تميّز نقد ابن رشيق بالخلفية الخلقية التي تميّز بها معظم نقاد المغرب، وإن كانت لم تأخذ منه اهتماما كبيرا في نقده التنظيري غير إشارات وردت في العمدة، وهي تأكيده على الدور المنوط بالشاعر وما ينبغي له من تجنب الهجاء، يقول :" ومع ذلك كلّه فلا ينبغي للشاعر أن يكون شرسا شرّيرا، ولا حرجا عرّيضا، لما يدلّ به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته"[16]، غير أن هذه الإشارة وإن بدت مفتقرة إلى ما يوسّعها ويدعمها نظريا فإنها بالمقابل تجد تطبيقها العملي في الأنموذج، مما سنعرض له عند تناولنا الجانب التطبيقي من نقده.

* مما تميّز به ناقدنا وضوح الرؤية وتعدد المشارب، إذ يعتبر جامعا ومرتّبا ومنقّحا لمسيرة أكثر من ثلاثة قرون من التجارب النقدية، كما كانت أحكامه في الغالب ثابتة ناتجة عن اقتناع واطلاع ومصاحبة للنصوص لأنه كان ملتزما بآرائه في مؤلفاته ومن الأمثلة على ذلك اعتباره ابن هانئ الأندلسي من أصحاب الجلبة والقعقعة التي ليس وراءها طائل: "وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر: كأبي القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه"[17] وقد ساق الحكم ثم أورد ما يبرّره من شعر ابن هانئ

" فإنّه يقول أول مذهبته:

أصاخَتْ فقالتْ: وقعُ أجردَ شيظمٍ وشامت فقالتْ: لمعُ أبيضَ مُخذمِ

وما ذُعِرتْ إلّا لجرْسِ حُلِيِّهَـــــا ولا رمقَتْ إلّا بُرًى من مخدّمِ"[18]

ثم يعلق على الشعر ملاحظا ضآلة المعنى وعدم انسجام الصورة التي حاول الشاعر رسمها، ويرى بأن الشاعر أخفق في الربط بين الصورة المتخيلة وبين المعنى المدرك بعد النظم، إذ يقول:" وليس تحت هذا كله إلا الفساد، وخلاف المراد، ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها ليست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف؟ غير أنها مغزوة في دارها، أو جاهلة بما حملته من زينتها، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه!! فما هذا كله؟ "[19]وهذا الرّأي الذي نصادفه في العمدة نجد ما يوافقه ويؤكّده في الأنموذج.

و- ابن رشيق وقضية السرقات :

يلخص ابن رشيق هذه القضية في قوله في القراضة :"الكلام من الكلام، وإن خفيت طُرقه وبعُدت مناسبه"[20]، فهو يؤمن بأن المتحدث يستخدم مادة موجودة مسبقا لفظا ومعنى، وحينما نظر ابن رشيق في قضية السرقات الشعرية وأراد تحديد أنواعها عاد إلى الحاتمي في " حلية المحاضرة" محاولا الاستفادة من مصطلحاته بوعي نقدي وتدقيق وانتقاء منهجي، يتجلى ذلك في قوله: " وقد أتى الحاتمي في " حلية المحاضرة" بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت : كالاصطراف والاجتلاب، والانتحال، والاهتدام، والإغارة، والمرافدة، والاستلحاق، وكلها قريب من قريب. وقد استعمل بعضها في مكان بعض غير أني ذاكرها على ما خيلت فيما بعد" . ونلاحظ أن الناقد يصدر حكمين متباينين من هذه المصطلحات:

الحكم الأول انتقادي يحكم على تلك المصطلحات بقلة المحصول والتشابه من حيث الدلالة واستعمال بعض المصطلحات في مواضع لا تناسبها، مما يجعلها غير دقيقة وغير قادرة على تحمّل دلالات محددة ومميزة، وبالتالي فهي لا تتوفر على الكفاية العلمية التي تتميز بها العلوم المضبوطة بعد النظر والاستدلال.

أما الحكم الثاني فيناقض الحكم الأول، لأنه يقرر استخدام مصطلحات الحاتمي كيفما فهمها أو وقع له محصولها فيما بعد، وهذه المسافة التي تفهم من عبارة – فيما بعد – تبدو كأنها تأويل أعطاه التطور التاريخي لهذه المصطلحات فأصبحت تحتمل فيما تحتمل المفاهيم التي أرادها الحاتمي.

وابن رشيق كان أكثر تفهّما وأكثر عمقا في مناقشته لهذه القضية، إذ خصها بجزء معتبر من كتابه العمدة، جمع فيه ما يقارب عشرين مصطلحا في وصف أنواع السرقات الشعرية. فذكرها جملة في البداية، مع الحرص على وضع حدود لها وتبيان الفروق بين المتقارب منها. ثم عرّج، بعد ذلك، على التفصيل والتمثيل لكل نوع منها على حدة. وأفرد لها رسالة قراضة الذهب، وحدّد معانيها وحاول التّمييز بين المقبول منها والمستقبح مع بذل جهد مضاعف في وضع المصطلح المناسب لكل نوع، وهو بذلك يعتبر متخصّصا في مجال تداول المعاني بين الشعراء [21].

ومن الأحكام المؤسّسة لنظرته والتي تبين حدود منهجه النقدي وضوابطه في هذه القضية قوله: " إن أهل التحصيل مجمعون على أن السرقة إنما تقع في البديع النادر والخارج عن العادة، وذلك في العبارات التي هي الألفاظ لا ما كان الناس فيه شرعا واحدا من مستعمل اللفظ الجاري

على عاداتهم وعلى ألسنتهم، وكذلك من المعاني الظاهرة المعتادة فإنها معرضة للأفهام، متسلّطة على فكر الأنام. ومن هنا قل اختراع المعاني، وقلت السرقات فيها، وصارت إذا وقعت أشهر"[22] .

فالناقد الشاعر مؤمن بأن الإبداع تراكم مستمر، وليس كله خلقا من عدم، والشاعر عنده لا يكون سارقا إذا تصرف في المعاني الجارية المشهورة، وإنما يعتبر كذلك إذا تعرض لمعنى خاص أو للفظ بديع، ومن هذا المنطلق أخرج ابن رشيق من باب السرقة، كثيرا من الصور التي يعتقد أنها سرقة، وهي في الحقيقة غير ذلك. وحقق في أخرى وأبرز مكامن السرقة، ومدى إجادة الشعراء أو تقصيرهم فيها، معتمدا في كل ذلك على مقاييس واضحة وصريحة في أغلبها.

ومن العلماء الذين شهدوا لابن رشيق بالتقدم في مجال النقد والأدب ابن خلدون ، إذ يقول في مقدمته:" "وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه" [23]، كما ذكر الكتاب بعنوانه مثنيا عليه ثناء عريضا: "ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة، وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله"[24]

النقد التطبيقي في كتاب الأنموذج:

تناول الجانب التطبيقي لنقد ابن رشيق يزيح السّتار عن الشخصية العلمية الحقيقية لهذا الرجل، متمثلة في آرائه الكثيرة المبثوثة في ثنايا الأنموذج، فهل كان ناقلا ومنسقا ومحاورا متواضعا كما لمح إلى ذلك كثير من الدارسين أثناء تناولهم لنقده في العمدة؟ وهذا الحكم وما يميزه من مبالغة لا ينسجم ونقد ابن رشيق التطبيقي هذا إذا كان يصحّ على نقده النظري، إذ يتكشّف لنا الأنموذج عن كاتب مترجم ومصنّف وناقد يهتمّ أولا بانتقاء المقطوعات الشعرية للشّاعر المترجَم له ثم يقوم باختيار بعض أخباره ويورد بعض المعلومات التي يراها ابن رشيق واجبة في التعريف بهذه الشخصية أو تلك، وكثيرا ما يشفع ناقدنا اختياراته بحكم نقدي يبين فيه منزلة النصّ الشعري أو مصوّبا الشّاعر في بعض ما أورده أو معدّلا، أو مشاركا في السجالات الشعرية في بعض الأحيان، ومما تميز به نقد ابن رشيق في الأنموذج:

–الذّوق الفني المُرهَف: إن أول ما يطالعنا عند ابن رشيق لدى قراءة ما تبقّى من كتابه الأنموذج، هو هذا الذوق المدرّب الذي يدلّ على إحساسه الصادق، ويتجلى في سمو مختاراته من جهة، وحسن بصره بالنصوص من جهة ثانية (إيراد أمثلة من الأنموذج وتعليق ابن رشيق عليها

وهي موجودة عند ابن يزن)، من أمثلته وهي كثيرة في الأنموذج، ثناؤه على قول ابن الخوّاص الكفيف:

" دَقّ لِمَا يَلْقَى من اللّمسِ وفَاتَ دَرْكَ الوَهْمِ والحِسِّ

كأنّه ممّا به مِنْ ضَنًى وَهْمٌ جَرَى في خاطِرِ النّفْسِ"[25]

–قال ابن رشيق معلقا– قد اشتدّ أسر هذا الكلام، ولم تدركه فترة الكلل، ولا رزاحة الثقل، بل أتى رطب المغامز، ثابت المراكز"[26]

–التّنبيه إلى طريقة الشّاعر: ينبه إلى الطريقة التي ينتهجها الشاعر في النظم، فيلحقه بمدرسة أحد الشعراء السابقين باتجاهاتهم المشهورة، تطبيقا لرأيه في العمدة:" لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه، ويسهل عليه تناولها: كأبي نواس في الخمر، وأبي تمام في التصنيع، والبحتري في الطيف وابن المعتزّ في التشبيه، وديك الجن في المراثي، والصنوبري في ذكر النّور والطير..."[27]، من ذلك حديثه عن الحصري:" وكان شاعرا نقّادا، عليما بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة تشبّها بأبي تمّام في أشعاره، وتتبّعا لآثاره" ولهذا يذكر أن أبا بكر الوراق التميمي "الورّاق التّميمي، شاعر مطبوع يكره عويص الكلام ويجتنبه، وينحو نحو الصنوبري ..."[28]، "الشريف الزيدي، ... أشبه الناس طريقة في الشعر بكشاجم..."[29]وذكر غيره كذلك " النمدجاني ... سلك طريق أبي الرّقعمعق في التهكّم والتّحامق، وصحبه بمصر مدّة طويلة"[30] هذه أمثلة دالة على دقة نظر ابن رشيق ومقدرته في رد المعاني والأساليب إلى مصادرها الأصلية وملاحظة خيوط الترابط بين أساليب الشعراء.

–**إعادة المعاني إلى مصادرها:** إنّ إيمان ابن رشيق بأن أحدا من الشعراء لا يقدر أن يدّعي السلامة من السرق[31]، نبّهه إلى أن ينظر مليّا في النصوص التي بين يديه، ويعيد معاني النصّ المدروس إلى مظانّها الأولى، ليبيّن لنا مدى أصالة الشّاعر أو تقليده، إذ تنبّه ابن رشيق إلى التّناص في بيت الخزاعي و أدرك مقدار تصرف الشاعر في المعنى القديم :

"أَهْوى المَلامَةَ فيكِ حتّى لو دَرَى أَخذَ الرَّشَا مني الّذي يَلْحاني...

أخذه من قول أبي الشّيص وزاد فيه:

أجدُ المَـلامَة في هواكِ لذيـذةً حُبًّا لذكرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّـوَّمُ" [32]

وهذا الجانب قد وسّع القول فيه في العمدة والأنموذج والقراضة وقد سبق الإشارة إليه.

–التعديل الفني: خاصية أخرى ترافق ابن رشيق أحيانا في ما يتصدى له من نصوص، ألا وهي اقتراح صياغة جديدة من عنده، وإدخال تعديلات على عبارة النص حتى تتوافر له عناصر الجودة المطلوبة (أمثلة)، من ذلك ما ذكره "تذاكرت مرّة أنا وأبو العباس ابن حديدةما قيل في دنوّ السحاب فعرض لنا قول محمود بن الحسين كشاجم في سحابة وصفها:

دَنَتْ منَ الأرضِ علَى كَلالِها كأنَّما تسْألُهَا عن حَالِهـــا

فقلتُ لو أشار إلى العناق لكان أَوْصَف، فأنشدني في الغد من قصيدة:

يَا رُبَّ مُتْأَقَةٍ تَنُـــــــوءُ بِثِقْلِهَا تَسقي البِلادَ بوابلٍ غَيْدَاقِ

مَرَّتْ فُوَيْقَ الأرضِ تَسْحَبُ ذَيْلها والرّيحُ يحمِلُها على الأَعْنَاقِ

ودَنَتْ فكادَ التُّرْبُ ينهضُ نَحْوَها كنُهوض مُشتاقٍ إلى مُشتاقِ

فكأنّما جـــــــاءتْ تقبِّل تربَها أو حاولتْ منها لذيذَ عناقِ"[33]

والملاحظ أن رأي ابن رشيق كان محترما لذلك عاد الشاعر من غده بالمعنى الذي اقترحه ناقدنا، وهذا يدل على مكانة ابن رشيق النقدية بين معاصريه. ونجده أحيانا يشكك في الرواية إذ علّق على بيت علي بن هبة الله:

"إذَا ملَكَ الحبَّ حبَّ القلـــوبْ فعنْهُ يـــــرَى وبه يُبْصِرْ

هكذا الرواية في البيت وهو تكرير يقبح على الشاعر الحاذق، وإن سومح فيه، والذي أرى أن يروى: فعنه يعي وبه يبصر"[34]، فقد شكّك الناقد الحافظ في صحة البيت، وإذا لم يكن متأكّدا يشير إلى شكّه ولا يؤكّده كقوله:" وأظن البيت قديما لسرعة إجابته إيّاي، فإن كان لوقته فذلك أعجب، وأغلب ظني أنّه لعلي بن الجهم"[35]

–الصدق والالتزام الفني: مما يلاحظ على مصنِّف الأنموذج الالتزام برسالة الناقد والإخلاص لدوره والتعالي عن كل ما سوى ذلك من خصومات أو قضايا خارجة عن الأدب، من ذلك تزكيته لشعر ابن شرف على ما كان بينهما من منافسة وخصومة، إذ يذكر أن ابن رشيق ألف عدة رسائل للقدح في ابن شرف، لكنه في الأنموذج يقف موقف المنصف فيثني على مكانته

الشعرية:" "ابن شرف: شاعر حاذق، متصرف كثير المعاني والتوليد، جيد المقطعات والتقصيد، لا ينكر حذقه، ولا يدفع سبقه، أشعر أهل زمانه..."[36]، وهذا الالتزام والصدق الفني يعترف به معظم دارسي الأنموذج، يقول أحمد يزن: "ولعل أهمية الأنموذج تتمثل بخاصة في نقد النصوص الشعرية، ذلك أن ابن رشيق قد اتّخذ منها موضوعا ليطبق مذهبه في النقد، فوقف من شعراء عصره مواقف جادة متميزة، ولم يقم وزنا لتقدم أحدهم في السن أو تأخّره، وإنما استند إلى التّجويد الفني بوصفه مقياسا أوليا في تقديم النص والحكم عل صاحبه"[37].

–الخلفية الخلقية في النقد: تميّز نقد ابن رشيق بالخلفية الخلقية التي تميّز بها معظم نقاد المغرب، فكثيرا ما يطلق هذا الوصف على شاعر تدليلا على عدم التزامه الأخلاق العامة أو لكونه من الهجّائين، كوصفه عبد الرحمن بن محمد الملقب بالفراسي" كان شاعراً خليعاً ماجناً شريراً كثير المهاجاة، قليل المداراة، خبيث اللسان، من تلاميذ الصرائري، صحبه وجاراه. توفي بمدينة سوسة، سقط من سطح وهو سكران فتردّى بحضرة عتيق بن مفرج سنة ثمان وأربع مائة وقد نيّف على الثلاثين."[38]، ووصفه للمجدولي وهو عتيق بن عبد العزيز المذحجي:" وكان شاعراً شريراً منابشاً هجّاء معجباً بما يصنعه، لا يرى أحدا مع نفسه، وكان سريع البديهة، مُدلاًّ على الكلام، لا يطلب إلا الوزن، مسامحاً لنفسه في العربية إن أعوزته لفظة صنعها على ما يشاء، ويروي بيتاً شاهداً عليها، وإن طولب به أحال على كتاب لم يسمع بذكره قط"[39]، ووصف الناقد لهما يؤكد على مبدئه الخلقي في النقد وكراهيته للهجاء في الشعر، وهذه الكراهة مرتبطة بمن اشتهر بالهجاء وليست كراهة مطلقة، لأن استعمال صيغ المبالغة "هجّاء" أو التركيب الصريح " كثير المهاجاة" تدلّ على اشتهار الشاعرين بهذا الغرض، أما أن يرد منه القليل في شعر الشاعر فيراه مقبولا ودليل ذلك أنه أورد بعض نماذجه دون وصف الشعراء بالشرّ أو التّنقّص كما فعل سابقا.

قيمة كتاب الأنموذج بين النقد التطبيقي والتاريخ:

الأنموذج وثيقة تاريخية تعطي صورة عن المجتمع الصنهاجي، وما كان شائعا في تلك الفترة من علوم وفنون وطبائع اجتماعية رصدها عند ترجمته للشعراء وهي تحوي قدرا كبيرا مما كان متداولا في المجتمع من مواقف وتقاليد، ويمكن اعتبار الأنموذج وثيقة تاريخية تؤرخ حتى لمستوى الرخاء الاقتصادي وما ينتج عنه من انتشار للخمر ومجالس اللهو والقيان وحتى التغزّل بالغلمان مما يشابه كثيرا الحياة في الحواضر العربية في تلك الفترة وما شاع فيها من لهو ومجون وانحلال، كما نعثر على الكثير من الإشارات والمواقف التي تصف الحياة السياسية وما ميزها من صراع بين

السنة والشيعة ، أو تلك المراسلات والهدايا التي كان يتم تبادلها بين الحكام الصنهاجيين وغيرهم ، ومن القضايا المهمة التي يمكن التعرف عليها في الأنموذج، طبيعة الصلات الثقافية بين المغرب – القيروان – وغيرها من البقاع وخاصة الأندلس والمشرق العربي .ويمكن إيراد بعض الشواهد عن هاته النقاط:

– يحوي الكتاب على الكثير من الإشارات التي تعطي صورة عن الحياة الاجتماعية التي كانت شائعة في القيروان وعن المستوى المعيشي والرفاهية التي كانت آثارها واضحة على كثير من الشعراء وبعض طبقات المجتمع. فقد انتشر شرب الخمر وتعددت مجالس اللهو، كما برز نوع جديد من الغزل وهو التغزل بالغلمان، الذي يلاحظ أنه يرتبط بمستوى عال من الرفاهية والمجون، من ذلك القصة التي أوردها في قوله: " ودخل إلى صاحب قيان، فوجد جماعة من إخوانه يشربون منهم ابن أبي حفص الكاتب، ورأى برذونه قائماً في السقيفة، فقال: كم لكم هاهنا؟ فقالوا: كذا كذا يوماً. فشرب نهاره أجمع وليلته وأراد الانصراف من الغد، فافتقد رداءه ودراهم كانت معه، وسأل القوم فما وقع على عين ولا أثر، فقال لابن أبي حفص: سألتك بالله إلا ما نزلت إلى هذا العبد الصالح فاستوهبت لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا، أو يجمع علينا ما راح منا. فإنه صائم النهار قائم الليل. قال: وأي عبد يكون هذا؟ قال: هو برذونك يا سيدي، فضحك الجماعة. وخرج وهو يقول:

ذُو غرفـــةِ نفسٍ أعْــلاها للفُسقِ والعِصْيانِ أنْشَاهَا
قدْ وَضَعَ الميزانَ في وَسْطِهَا وكُنتُ منْ أوَّلِ قَتْــلاهَا
منْ يعْــرفُ الله فَلا يَأْتِــها فمَا بِــها منْ يعرفُ اللهَ"[40]

وهذه القصص وغيرها أقرب إلى التندر لكنها تعطي صورة حقيقية عما كان شائعا ومنتشرا من مظاهر الترف واللهو.

– يحتوي الكتاب على إشارات للصراع السياسي بين السنة المالكية والشيعة الذين ينعتهم بالروافض، وإن كان هذا الكتاب يصف مقتلهم وابتهاج الناس بذلك، ويورد قصائد الشعراء التي نظمت فرحا بانتقام الأهالي من الشيعة، وهو بذلك يؤرخ لفترة كان حكم الصنهاجيين للمغرب قد انقلب على الشيعة وأمكن منهم الشعب الذي عانى الكثير من ويلاتهم أيام تغلبهم، كقصة إسحاق بن إبراهيم الذي وصفه "بالرّافضي" ثم أورد خبر حادثة مقتله:" كان رافضيّا سبّابا، عليه لعنة الله.

وقتله سيّدنا –أطال الله بقاءه –عشرين وأربعمئة احتسابا... وكان ممقوتا، فعزمت على خلافه مضايقة له وإهوانا إلى ما يأتي به"[41]، وهذا الخبر يشير إلى موقف السنة المجافي للشيعة في ذلك العصر لكن لهذا الموقف ما يبرره من انتهاكات تعرض لها عموم السنة أيام حكم الفاطميين.

–كما يحتوي الأنموذج وصفا لطبيعة الصلات الثقافية بين المغرب وحاضرتها آنذاك القيروان وغيرها من البقاع وخاصة الأندلس والمشرق العربي وصقلية، إذ يصف رحلات كثير من الشعراء والعلماء إلى هذه المناطق، فالمشرق كان قبلة للحج أو إقبالا على الحكام الفاطميين بمصر[42]، أما الأندلس وصقلية فكانتا بمثابة الجزء من الوطن الواحد الذي تشكّل القيروان مركزه، فكانت تآليف القيروانيين تصل إليه[43] والرحلة إليه منتشرة وكثيرة، كما يصف الانموذج ما تميّز به الحكام في قيروان أو الأندلس أو صقلية من اهتمام بالأدب وبأهله وحسن معاملة العلماء والكتّاب[44].

خاتمة:

ابن رشيق من الشخصيات النقدية والأدبية التي تركت أثرا واضحا في النقد الأدبي العربي خاصة في كتابه العمدة الذي جمع فيه أكثر النظريات النقدية والمصطلحات البلاغية، فكان عمله ملخّصا لأكثر من ثلاثة قرون من الجهود النقدية، وكان بحيوية شخصيته وبمنهجه النقدي المعتمد على مناقشة وتحليل الرؤى والأفكار السابقة ومحاولة إيراد أكثرها ثم استخلاص الأرجح أو تقديم حل توفيقي لبعض القضايا التي لم يتم حسم النظر فيها، كما نجده ممثلا للنقد المغربي بخصائصه العامة التي تضع قيودا أخلاقية على الإبداع الأدبي كما كان يميل إلى الآراء التوفيقية التي تحاول احتواء الآراء على كثرتها وتباينها، كما يعتبر عمله التطبيقي في القراضة تطبيقا رائدا لقضية من قضايا النقد القديم ألا وهي قضية السرقات أو ما يسمى حديثا بالتناص، أما الأنموذج فهو أقلّ تآليف ابن رشيق احتواء للآراء النقدية لأن الهدف منه كان الترجمة لمعاصريه ويعود إليه الفضل في ذكر كثير من الشعراء الذين لم يذكروا إلا من خلاله، وإن كان يضم كثيرا من الآراء النقدية التطبيقية التي حاول من خلالها التعريف بمئة شاعر وشاعرة من معاصريه، وحاول إعطاء صورة للشعر وللحياة العامة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

الهوامش والتعليقات:

[1] زروقي عبد القادر: أدبية النص عند ابن رشيق في ضوء النقد الأدبي الحديث، ط1، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2014، ص5.

[2] ينظر، محمد الولي: التفكير النقدي والبلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 23 وما بعدها.

[3] ينظر، مصطفى الغرافي: الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مقال في مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، العدد 1، المجلد 40، 2011، ص250.

[4] نفسه، ص250.

[5] بعض الدارسين يرون أن ابن رشيق كان جامعا وناقلا في الكثير من إنتاجه النقدي، مع الاعتراف بمكانته العلمية: إحسان عباس، علال الغازي، الأخضر جمعي.

* أبو الحسن علي بن أبي الرجال: 454 هـ –1062م كان رئيسا لديوان الإنشاء في قصر المعز بن باديس، وكان عالما اهتم بعلم الفلك وبالأدب، وهو الذي لقن المعز بن باديس العلوم ورباه، أخذ عنه ابن رشيق أساليب الكتابة، وأعجب به، له كتاب: البارع في أحكام النجوم.

[7] ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع،1981، ج1، ص146.

[8] نفسه، ج1، ص75.

[9] نفسه: ج1، ص87.

[10] إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص 444.

[11] أنموذج الزمان: مقدمة المحقق، ص 23.

[12] ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص38

[13] نفسه، ص39

[14] صالح مفقودة: رأي ابن رشيق في بنية القصيدة ومكانته في النقد الأدبي، مجلة العلوم الإنسانية–جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد04، ص126.

[15] ينظر، بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص256

[16] ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص115.

[17] نفسه، ج1، ص38.

[18] نفسه، ج1، ص38.

[19] نفسه، ج1، ص38.

[20] ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تح الشاذلي بويحي، دط، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1972، ص107.

[21] ينظر، فريدة مقلاتي: نظرية الشعر عند ابن رشيق، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 2009/2008، ص299 وما بعدها.

[22] ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ص 20، 21.

[23] ابن خلدون: المقدمة، ص357.

[24] نفسه، ص371.

[25] حسن بن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص153.

[26] نفسه، ص153.

[27] ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص 286

[28] ابن رشيق: أنموذج الزمان، ص251

[29] نفسه، ص273

[30] نفسه، ص72، 73

[31] ينظر، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص 206.

[32] ابن رشيق: أنموذج الزمان، ص330.

[33] نفسه، ص292، 293

[34] نفسه، ص295.

[35] نفسه، ص324.

[36] نفسه، ص340

[37] أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، رسالة دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد بن عبد الله بفاس، المغرب، 1977، ص331.

[38] نفسه، ص46

[39] نفسه، ص248، 249

[40] نفسه، ص94 – 98.

[41] ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان، ص78، 79

[42] ينظر، ترجمة أبي إسماعيل الكاتب في الأنموذج، ص50.

[43] ينظر، ترجمة الحصري في الأنموذج، ص 45.

[44] ينظر، ترجمة عبد الله الجبنياني في الأنموذج، ص 186.